# الموشحات المصرية

ظهر الموشح بالأندلس فى القرن الثالث للهجرة لكنه كان فى هذا القرن فجا لم توضح أسسه وأصوله بعد، شأنه فى ذلك شأن ابتداء أى فن آخر، ولم يتخذ طابعه إلا فى القرن الرابع للهجرة، إذ أصبح فنا له أصوله وقواعده، وظهر كثير من الوشاحين فى الأندلس أمثال ابن بقى والتطيلى وغيرهما، وانتقل هذا الفن إلى بلاد المشرق وإلى مصر فى العصر الفاطمى وعرف بها على أنه فن شعبى مثل غيره من فنون الشعر الشعبية التى كانت بمصر مثل الزكالش والبلاليق، فلا غرابة إذن أن نرى فن الموشح يزدهر فى مصر فى عصر بنى أيوب بل يظهر لأول مرة فى تاريخ هذا الفن كتاب مصرى يوضح أصول هذا الفن وأسسه بطريقة علمية لم يسبق إليها، هذا الكتاب هو «دار الطراز» لابن سناء الملك[1] ويصرح ابن سناء الملك «ولم أر أحدا صنف فى أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى وسبيلا يقتفى جمعت فى هذه الأوراق ما لابد لمن يعاينها «أعنى الموشحات» ويعنى بها من معرفته ولا غناء به عن تفصيله وجملته ليكون للمنتهى تذكرة وللمبتدى تبصرة»[2] فالمصريون إذن هم أول من صنفوا فى فن الموشحات، بالرغم أنه فن دخيل عليهم. والأصل فى الموشح الأندلسى كما جاء فى كتاب دار الطراز أنه كلام منظوم على وزن مخصوص يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات تتردد فى الموشح، ويقال له الموشح التام، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع، وسنرى أن الموشحين المصريين لم يتقيدوا بهذا العدد أو ذاك، والتام يبتدىء بأقفاله والأقرع يبتدىء بأبياته.

أما الأقفال فهى أجزاء مؤلفة يجب أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها، والأبيات أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح فى وزنها وعدد أجزائها لا فى قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافى كل بيت منها مخالفة لقوافى البيت الآخر. وأقل ما يتركب القفل من جزئين إلى ثمانية أجزاء والبيت ثلاثة أجزاء. فمن أمثلة الموشح التام قول ابن سناء الملك:

---

(١) نشر هذا الكتاب الدكتور جودة الركابى بدمشق سنة ١٩٤٩.

(٢) دار الطراز ص ٢٤.

أهوى قمر - أحوى أغر - حلو الرضاب - ألمَى
وعاذلى لما نهى - عن التصابى - أعمى

البس ضناك جهرا واكتم هواك سرا
وأذرف الدموع تبرا وارمى العذول برا

فلو نظر - كان أمر - بضعف ما بى - حتما
وما نهى بل كان قد عد مصابى غنما

هل تعلمون من بى حسبى هواه حسبى
يا حرَّ نار قلبى زد يا هوى فى كربى

ويا سهر فلا تذر وباكتيابى مما
أردت فافعل لا تخف على عقابى إثما

مالى عنك مذهب كيف وأنت المطلب
لك الطراز المذهب لك النقى الأشنب

مثل الدرر - مثل الزهر - مثل الحباب نظما
لك الذى نسميه خصرا كالسراب وهما

كالبر بى عقوقك لأننى مشوقك
أعطش إذا أذوقك وكالزلال ريقك

فيه خصر ومعتبر زاد التهابى بالْمَا
وكلما شربت من ذاك الشراب أظما

وغادة مختاله ما صلحت إلا له
غنت بشرح الحالة إذ خرق الغلاله

لما عبر وقد سكر خرق ثيابى ظلما
فى حل هو لا تنقلوا من عتابى كلما

«فأهوى قمر، فلو نظر، ويا سهر، ومثل الدرر، ولما عبر» كل هذه هى بداية الأقفال الستة وما بعدها هى الأبيات. والقفل الأخير فى الموشح هو ما يعرف بالخرجة، ويشترط فى الخرجة أن تكون على مذهب مدرسة التحامق الذى رأيناه فى العصر الفاطمى، وأن تكون ملحونة ومن ألفاظ العامة؛ فإن كانت معربة خرج الموشح من أن يكون موشحا إلا إن كان الموشح فى المدح وذكر الممدوح فى الخرجة فيحسن فى هذه الحالة أن تكون الخرجة

معربة، وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها فى منتهى الرقة. والمفروض فى الخرجة أن يجعل الخروج إليها استطرادا وقولا مستعارا، وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنساء والسكارى، وفى هذه الحالة لابد فى البيت الذى قبل الخرجة: من قال أو قالت أو غنى أو غنيت أو ما فى معناها، ففى الموشح السابق نجد الخرجة معربة ذات ألفاظ رقيقة لها وقع خاص.

والموشح الأقرع ذو الخرجة العامية مثل قول ابن سناء الملك أيضا:

دانت لى الدنيا ... وواصل الوصلا
من هو لى محيا ... وصار لى خلا
لا أسمع النهيا ... فيه ولا العذلا
ما أعطر اللقيا ... له وما أحلا

تلك الخلس – من النفس – أو اللعس – لقد كمل – بدر طرق مثل الفلق – تحت الغسق – حتى سرق ألباب أهل الصواب.

ما صال حتى صاد ... بطرفه الوسنان
وصير الآساد ... فرائس الغزلان
وأخلف الميعاد ... وأخجل السلوان
جبينه الوقاد ... إن شئت والفتان

فيه قبس – تحت الغلس – وقد حرس – ورد الخجل – نبل رشق حتى أبق – قلبى فرق – فللحدق نشاب بها نصاب.

هذا هو الباطل ... حقا بلا شك
وإنما القائل ... صدقا بلا إفك
من يمدح الفاضل ... بالدر فى السلك
الواصل السائل ... والغارس الملك

لما جلس – وقد رأس – فكم غرس – من الدول، وكم رتق – ممن فتق وما لحق – لما خلق – وهاب بلا حساب.

وجرت الأقدار ... بحسب إيثاره
وسارت الأخبار ... بحسن آثاره

كـم مـلك جـبـار سـعـى إلـى داره
وراح لـمـا حـار فـى عـظـم مـقـداره

إذا عبس - فقد حبس - كل نفس - من الوجل وإن نطق فالسحر حق - وإن رزق - فاخشى غرق - سحاب ذيل السحاب.

وأهـيـف ألـمـى كـدمـيـة الـمـحـراب
هـامـت بـه أسـمـا وللـهـوى أسـبـاب
وهـو بـهـا مـعـمـى وهـكـذا الأحـبـاب
قـالـت لـه لـمـا غـلـقـت الأبـواب

بالله لس - تبوسني بس - دع ذا الهوس - وذا الكسل وقم ودق - واركب وسق - وازرع وشق - ومن يدق الباب ما له جواب.

والموشح إما أن يكون على أوزان الشعر العربى المعروفة، أو مالا وزن له فى الشعر، وهذا هو الأكثر، فمن أمثلة الموشح غير الموزون قول نصير الإدفوى المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ونلاحظ أن هذا الموشح ليس على نهج الموشحات الأندلسية فى عدد أقفاله وأبياته بل زاد على العدد زيادة ملحوظة، وأن خرجته ليست بالعامية كما تقتضى ذلك الموشحات، ثم إن أوزانه لا تجرى على أوزان الشعر المعروفة، وهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن مصر تقبلت هذا الفن الأندلسى وسرعان ما فتنت به وأكثرت منه، ولكنها بتأثير شخصيتها وقوتها الهاضمة استطاعت أن تغير من أصول هذا الفن، وتتلاعب به وتخرجه شيئا لم يؤلف من قبل، وهاهو موشح نصير الإدفوى الذى كان يحفظه أهل إدفو وينشدونه فى هذا العصر[1] وهو من نوع الموشح التام بيته من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء، وقفله من ستة أجزاء.

يـا طـلـعـة الـهـلال هـل لالـى فـى الـحـب مـنـتـظـر
يـا غـايـة الأمـالـى أمـا لـى مـن الـهـوى مـفـر
أمـا لـدائـى راقـى مـن راقـى قـدرا عـلـى الأنـام
زهـا بـحـسـن الساقى والـسـاقـى مـن ريـقـة الـمـدام
بـه فـؤادى بـاقـى والـبـاقـى فـى لـجـة الـغـرام
سـسـت والـخـلاق أخـلاقـى بـالـصـبـر إذ هـجـر
فـلـذ لـلـمـذاقـى مـذاقـى فى حـبـه الـسـهـر

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٩٠.

هل من فتى يسعى فى ... إسعافى بالقرب من رشا
إن مال بالأرداف ... أردافى قلبى مع الحشا
مكمل الأوصاف ... أوصى فى قتلى وأدهشا
عقلى وحكمو الجافى ... ألجا فى ركوبه الغرر
فكم من الإسراف ... أسرى فى كفيه من خطر
أزرى الجبين الحالى ... بالحالى ممن قد اغتدى
إذ فاق بالكمال ... كما لى أشقى وأنكدا
عن ابنة الدوالى ... دوا لى قلبى من الردا

وقد بذلت المال ... أومى لى ... باللحظ إذ نظر
وقال إذ ألوى لى ... الوالى ... يُرفع له الخبر
يا غصن بان مائل ... يا مائلى ... دعنى لشقوتى
إرثى لدمعى السائل ... يا سائلى ... عن حال قصتى
ولا تطيع العاذل ... يا عاذلى ... وارفق بمهجتى
وإن تزرنى قابل ... فى قابل ... أفوز بالنظر
كى ينجلى يا فاضل ... الفاضل ... فى حالة الغير
يا منتهى الأمالى ... أمالى ... فى الحب من مجير
إرثى لجسمى البالى ... يا بالى ... وارحم فتى أسير
وقد بذلت الغالى ... يا غالى ... فى القدر يا أمير
وفيك قد ألقى لى ... يا قالى ... هجرانك الضرر
وقطعت أوصالى ... يا صالى ... بقتلى سقر
إن جزت بين السرب ... فسر بى ... عن حيهم قليل
(ومل) بهم وعج بى ... فعجبى ... قلبى بهم نحيل
وطف بهم يا صاحبى ... وصح بى ... أبكوا على القتيل
وإن تقضى نحبى ... فنح بى ... فى السهل والوعر
وانزل بهم والطف بى ... وطف بى ... فى البدو والحضر
لم أنس إذ عنانى ... أعنانى ... والليل قد هدا

وقال إذ حيانى أحيانى روحى لك الفدا
واهتز بالأردان أردانى إذ قام منشدا
وطائر الأفنان أفنانى إذ لاح فى السحر
وهاتف الآذان آذانى إذ نبه البشر[1]

وأنشد المصريون الموشح فى كل غرض من أغراض الشعر ولا سيما فى المجون والمدح والغزل، فمن أمثلة المدح قول ابن النبيه يمدح الملك الأشرف وهو من الموشح الأقرع، بيته من جزءين، وقفله من أربعة أجزاء، ونلاحظ أن خرجته معربة:

قل لمن يلوم فى مهفهف أسمر
قده القويم فى كثيب أعفر
ثغره النظيم مسكر وسكر
آه لو سقانى.. أطفأت نيرانى.. درة ثمينة.. فى الياقوت مكنونة
ما أشد حالى إذا لم أر خدك
بنت يا غزالى ووكلت بى صدك
طالت الليالى بى تلفت من بعدك
هل أراك دانى.. فتفرح يا جانى.. مهجة حزينة.. فى يديك مرهونة
تطيب الحميا إذا كان ساقينا
واضح المحيا كغصن النقالينا
قال لى هنيا فقل يا مغنينا
لين البنان.. محياه بستانى.. لو يغضض جفونه.. جنيت نسرينه
أنا عبد موسى أبى الفتح شاه أرمن
كم أحيا كعيسى ميتا ولم يدفن
أخجل الشموسا بوجه له أحسن
واحد الزمان.. فليس له ثانى.. صاحب السكينة.. للدنيا به زينة
هازم الجحافل يوم ضيقة الأنفاس
ابن الملك العادل صاحب الندى والباس

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٣٩٠.

أخو الملك الكامل خيار جياد الناس
بالسبع المثانى.. أعيذ سلطانى.. من رأى جبينه.. رأى المشترى دونه
سيدى يصرغ جليل الطير
بالعقاب يكنى فاتح لبب الخير
كم به معنى ما ارتضى بالغير
دمت بالتهانى.. وعدوك الفانى.. ذام فى غبينه.. بالهموم مقرونة[1]

هكذا أسهم المصريون فى هذا الفن، وأصبح فنا من الفنون المحببة إلى الخاصة وإلى الشعب، وتغنى الناس بالموشح كما تغنوا بالزكالش والبلاليق.

**ابن سناء الملك (٥٥٠ هـ - ٦٠٨ هـ)**

أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك بن محمد بن هبة الله السعدى ويلقب بالقاضى السعيد ويعرف دائما فى الكتب الأدبية والتاريخية بابن سناء الملك، يعد ابن سناء الملك من أكبر شعراء مصر فى العصر الأيوبى ومن أكثرهم إنتاجا للمنظوم والمنثور.

وصفه ابن خلكان بقوله «صاحب ديوان الشعر البديع والنظم الرائق، أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء، وكان كثير التخصص والتنعم، وافر السعادة محظوظا من الدنيا»[2] وقال ياقوت الحموى «أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين، ذاع صيته وسار ذكره»[3] وعلى هذا النحو يذكره كل من تحدث عنه.

ولد ابن سناء الملك بالقاهرة حوالى سنة ٥٥٠ هـ فى أسرة عريقة مرموقة، وكان والده قاضيا للقاهرة، متصلا بالأحداث الجسام التى جرت إذ ذاك وأدت إلى سقوط الدولة الفاطمية، كما كان على اتصال بكبار شخصيات مصر فى ذلك الوقت، وكان لذلك أثره فى توجيه ولده إلى ناحية خاصة فى العلم، إذ بعد أن حفظ ابن سناء الملك القرآن الكريم على الشريف الخطيب المتوفى سنة ٥٦٣ هـ، نراه يتجه إلى الحافظ السلفى ليأخذ عنه الحديث وعلوم أهل السنة والجماعة[4]، مخالفا فى ذلك ما كان متبعا بين أبناء رجال الدولة الفاطمية الذين

(١) ديوان ابن النبيه ص ٥٤.
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٨٨.
(٣) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٥ (طبعة دار المأمون).
(٤) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٥.

كانوا يتوجهون لدراسة مذهب الإسماعيلية، وقد اضطرب ابن سعيد المغربى فى حديثه عن ابن سناء الملك إذ رماه بالمغالاة فى التشيع[1]، ولم يذكر ذلك أحد من مؤرخى ابن سناء الملك ولعل مصدر هذا الاضطراب الذى وقع فيه ابن سعيد، أن أفراد أسرة ابن سناء الملك كانوا من رجال دواوين الفاطميين وكانوا يتمذهبون بالتشيع أسوة بغيرهم من رجال الدولة، أما ابن سناء الملك نفسه فقد كان على مذهب أهل الجماعة والسنة فمن حسن حظه أنه ولد فى وقت كانت العقيدة الشيعية قد ضعفت ضعفا شديدا جدا فى نفوس الناس، وازداد شك المصريين فيها، كما أن الدولة الفاطمية الشيعية نفسها ظهر عليها الضعف ودلائل الزوال، فلا غرابة أن يحتاط والده فى تربيته وتوجيهه ولذلك أرسله إلى الحافظ السلفى ليأخذ عنه علم الحديث بالرغم مما يظهر فى شعره بعض التأثر بالتشيع، ومهما يكن من شىء فابن سناء الملك نشأ متفقها فى الدين الإسلامى على مذهب أهل السنة، كما أخذ العربية عن ابن برى أكبر علمائها فى ذلك العصر، وقد ظهرت ميول ابن سناء الملك للأدب عامة والموشح خاصة فى سن مبكرة فهو يقول فى مقدمة كتابه دار الطراز عن الموشح «وكنت فى طليعة العمر وفى رعيل السن قد همت بها عشقا وشغفت بها حبا، وصاحبتها سماعا وعاشرتها حفظا»[2] فهو يصرح هنا بأنه أعجب بالموشحات منذ صغره، سمع منها كثيرا وحفظ كثيرا وهو لا يزال صغير السن.

ويحدثنا العماد الأصفهانى فى خريدته أنه كان عند القاضى الفاضل فى خيمته بمرج الدلهمية ثامن عشر ذى القعدة سنة سبعين وخمسمائة فأطلعه القاضى على قصيدة كتبها له ابن سناء الملك وذكر أن سن بن سناء الملك لم تبلغ عشرين سنة، فأعجب العماد بنظمه[3]، ويقول العماد مرة أخرى «ثم وصل إلى الشام فى شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وخمسمائة فى الخدمة الفاضلية فوجدته فى الذكاء آية، أحرز فى صناعة النثر والنظم غاية، يتلقى عرابة العربية له باليمين راية، قد ألحفه الإقبال الفاضلى فى الفضل قبولا، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا، وأنا أرجو أن تترقى فى الصناعة رتبته، وتعزر عند تمادى أيامه فى العلم نغبته، وتصفو من الصبا منقبته، وتروى بماء الدربة رويته، وستكثر فوائده وتؤثر قلائده»[4] فهذا النص إن دل على شىء فإنما يدل على أن ابن سناء الملك أخذ ينظم الشعر

(١) ابن سعيد: المغرب المجلد الثانى ورقة ١٤٧ (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

(٢) ابن سناء الملك: دار الطراز ص ٢٤ (نشر الدكتور جودة الركابى).

(٣) العماد الأصفهانى: خريدة القصر ج ١ ص ٦٤ (نشر الدكتور شوقى ضيف وآخرين).

(٤) نفس المصدر السابق ص ٦٧، ٦٨

فى صباه، وأنه أحرز فى النثر والنظم غاية وهو لم يزل فى نحو الحادية والعشرين من عمره مما جعل العماد يرجو أن يتقدم فى هذا الفن، ولعل صلة ابن سناء الملك بالقاضى الفاضل كانت من عوامل تقدم شاعرنا فى فنه، وقد صرح ابن سناء الملك فى كتابه «فصوص الفصول» عن تلمذته للقاضى الفاضل بقوله «وهو الغنى وأنا المحتاج إليه، وهو المعطى وأنا الآخذ منه، وهو الأستاذ وأنا التلميذ له والمتعلم منه»[1].

أما سبب هذه الصلة الوشيجة بين الأستاذ والتلميذ فيظهر أنها أتت من صداقة القاضى الفاضل مع جد ووالد ابن سناء الملك، تلك الصداقة الوطيدة التى جعلت القاضى الفاضل ينيب القاضى الرشيد (والد شاعرنا) عنه فى الحكم كلما تغيب عن البلاد، وجعلت القاضى الفاضل يرسل إلى ابنه رسائل يحمله فيها السلام إلى ابن سناء الملك وأبيه وجده، أو يرسل إلى أبى سناء الملك ويذكر ولده؛ فكل هذا يدلنا على أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين أسرة أبناء سناء الملك كانت أقوى من صلة النسب، بالرغم مما هو معروف أن ابن سناء الملك وأباه كانا من رجال الديوان الفاضلى، ولا نعلم إلى الآن سبب هذه العلاقة وتطورها إلى أن توطدت إلى هذه الدرجة. بل عندما أرسل ابن سناء الملك إلى القاضى الفاضل يخبره بوفاة زوجه كتب إلى والده «وضاعف كمدى وفاة أم ولد القاضى السعيد وعز على عدم صبر أبى الحسن وتجرعه الحرقة عليها، وعز على قلة صبره وشدة جزعه، وهو بحمد الله قد لحق الرجال فى العمر، وأرجو أن يلحق السادة فى العلم والحظ، والله لا ينقص للحضرة عددا، ولا يشكل لها ولدا ولا يكدر من عيشها موردا» كتب ذلك ردا على خطاب ابن سناء الملك إليه يقول «وفى هذا الشهر ماتت أمّ ولد المملوك، فيالله ماذا فجعت وماذا أوجعت وماذا أبكت، كانت والله قرينة صالحة صحبها المملوك وصدغاه فى خدى غلام مراهق، وإلى أن شابت منه المفارق، فما رأى منها إلا الصحبة الصالحة وإلا المحبة الناصحة، وإلا الديانة الراجحة، وإلا حفظ الغيب، وإلا الإيمان ولا ريب، وإلا السلامة ولا عيب، وإلا صيانة الذيل والجيب، ولولا أن الموت أكرم نزال على الحرم لبكى المملوك وناح وشكى وباح، وغدا فى الأسف وراح»[2].

فلا غرابة بعد أن علمنا مدى هذه الرابطة بين الفاضل والسعيد من أن نقرأ مدائح السعيد فى الفاضل التى نجدها فى ديوانه وفى دار الطراز، فمن ذلك مثلا قصيدته التى مطلعها:

---

(١) ابن سناء الملك: فصوص الفصول ص ٣ (نسخة خطية بمكتبتى).

(٢) ابن سناء الملك: فصوص الفصول ص ٧٤.

إن كنت ترغب أن ترانا فالقنا ... يوم الهياج إذا تشاجرت القنا

وفيها يقول:

أصبحت فى مدح الأجلِّ موحدا ... ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وعدوت فى حبى له متشيعا ... من ذا رأى متشيعا متسننا
ورأيت صحبته نعيما عاجلا ... فرأيت بذل النفس فيه هينا
ياليت قومى يعلمون بأننى ... أدركت من كفيك نادرة المنى
أنسيتنى أهلى على كلفى بهم ... وذكرت أنى قد نسيت الموطنا[1]

ويمدحه فى قصيدته التى مطلعها:

عادنى من هوى الأحبة هبد ... فلباسى فيه غرام جديد

فيقول:

لى من راحتيه جنة مأوى ... وله بالثناء منى خلود
أنا عبد وخدمتى مدح مولى ... نجح القصد عنده والقصيد
هو قاض لا بل أمير إذا شـ ... ـئت لديه من المعالى جنود
وفقيه النوال يلقى على الخلـ ... ـق عطاياه والغمام معيد
أوسعوا جوده ملاما وتفنيـ ... ـدا فضاع الملام والتفنيد
رددوا عذلهم فرد عليهم ... كل شىء مردد مردود[2]

ويطول بى الحديث لو ذكرت جميع مدائح القاضى السعيد فى القاضى الفاضل فديوانه ملىء بها.

وكان القاضى الفاضل نفسه كثير الثناء على ابن سناء الملك يذكر بلاغته وصناعته فى النظم، فمرة كتب إلى والد ابن سناء الملك يقول عنه «أما بلاغته فقد بلغت الغاية وأما قلمه فإنه به قط أعطى الراية[3]».

ويقول مرة أخرى فى رسالة له معلقا على قصيدة ابن سناء الملك السينية التى مطلعها:

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس ... لا وحشت لما غاب لى عنك مونس

---

(١) ديوان ابن سناء الملك (نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) ابن سناء الملك: فصوص الفصول ص ٥٦.

بقولـه: نعرف القاضى السـعيد وصول كتابـه المعطوف على الفائيـة الوفائية، وقبلها وصلت السـينية السـنية، وما يرينا من آية إلا هى أكبر من أختها، وما يجلو علينا عروسا إلا وقد جمع بين حسنها وبختها، وقل ما يجتمع الحسن والبخت ولهذا قيل «وقد تمنى المليحة بالطلاق» وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق، وقد علقت العرب أدون منها، فلا غرو أن هـذه بالقلوب تعلق وبالضلوع تعتق، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها، وفضلتها هذه بجودتها وجدتها...إلخ[1].

فـلا غرابـة بعد ذلك كله من أن نرى فن القاضـى الفاضل يؤثر تأثيرا قويا على فن ابن سـناء الملك، وكلاهما أولع بالزينة اللفظية، وكلاهمـا أفرط فى التلاعب اللفظى، وكلاهما بلغت به المبالغة إلى حد الاسـتحالة، فلذلك قال القدماء أن ابن سـناء الملك من مدرسـة القاضى الفاضل، وقد ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب خطأ نسبة هذه المدرسة للقاضى الفاضل وقلنا إنها امتداد لمدرسة الكتاب الفاطمية، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سـناء مع ما حدث من إفراط فى اسـتخدام تلك الخصائص ويظهر أن ابن سناء الملـك كان مثـل القاضى الفاضل تماما، كانت له ثروة لفظية اسـتطاع بها أن يتلاعب وأن يكثر من التوريات، فالتورية أصل من أصول فن ابن سـناء الملك، كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى النثر والشـعر، ويحدثنا ابن سـناء الملك أنه متأثر أيضا بابن المعتـز فهو يقول «والمملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجـل ويتعثر ويطلبه مطالبة فتتعثر عليه وتتعذر، وما آمن المملوك به سـدى، ولا آنس ناره إلا لما وجد عندها هدى، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميل إليه طبعه، ولا سـار قلبه إلا إلى من دله عليه سمعه.» وكان ابن سـناء الملك يعجب بالبحترى، ويعيب على أبى تمام، ولم يجد بين هؤلاء القدماء من شعراء العباسيين من يتخذه أستاذا له فى الشعر سوى ابن المعتز، بينما كان القاضى الفاضل يتنقص ابن المعتز ويزعم أن تشبيهاته أخذت من ذى الرمة.

وبالرغـم مـن هذه العلاقة المتينة التـى كانت بين الوزير والقاضـى – أى بين القاضى الفاضل وابن سـناء الملك – فإن ابن سـناء الملك مدح الوزير الصاحب ابن شكر، وزير الملك العـادل، وغريم القاضى الفاضل وعدوه الألـد، فهو الذى وصفه القاضى الفاضل بقوله «أما ابن شـكر فهو لا يشـكر، وإذا ذكر الناس فهو الشـىء الذى لا يذكر» وكان ابن شكر يقول عـن القاضى الفاضل «ما فى قلبى حسـرة إلا من ابن البيسـانى، ما تمـرغ على عتباتى»

(١) نفس المرجع السابق ص ٥.

وكان ابن القاضى الفاضل يحضر عند الصاحب ابن شكر فيشتمه هذا، فهذا العداء الشديد بين القاضى الفاضل وابن شكر كان واضحا معروفا بين الناس جميعا، ومع ذلك كله كان ابن سناء الملك أحد شعراء ابن شكر فمدحه كما مدحه كثير من شعراء مصر، فهو يقول مثلا فى مدح ابن شكر:

ما على الدهر بعد رؤياك عتب ... ما بقى للزمان عندى عتب
هذه النظرة التى كنت أشتاق ... إليها طول الزمان وأصبو
أقبل البدر طالعا بعد أن كان ... له حين غاب فى الشرق غرب
أقبل الغوث أقبل الغيث جاء ... الليث وافى الوزير عاد الخصب
زعفران الخلوق فى الأفق برق ... وثناياه بالتبسم شهب
ليست مصر مصرا وقد غاب عنها ... لا ولا طعم نيلها العذب عذب
أيها الصاحب الذى أمره الجد ... وأمر الأنام لهو ولعب
ويوم كنت أبيض الحال لكن ... سودته تلك السنون الشهب
بك يعلو الولى يستنزل النصر ... ينال المنى يهون الصعب
كل نجم فى نور نجمك يخفى ... كل نار فى ضوء نارك تخبو[1]

ويخيل إلى أن ابن سناء الملك كان مضطرا إلى مدح الصاحب ابن شكر خوفا من بطشه وجبروته، ولا سيما أن ابن شكر كان يفتن فى تعذيب أعدائه، وخاصة من كان متصلا منهم بالقاضى الفاضل.

ولكن الفن الذى عرف به ابن سناء الملك، وضرب فيه بسهم وافر هو فن الموشحات، وقد ذكرنا كيف أولع بهذا الفن منذ صغره، وحفظ كثيرا من الموشحات المغربية، وقرأ كثيرا منها، مما جعله يفتن بهذا الفن افتنانا، ويضع كتابه دار الطراز، ولأول مرة فى تاريخ الموشح يظهر كتاب يتحدث عن قواعد هذا الفن وأصوله، ويكون المؤلف هو ابن سناء الملك.

وقد حدثنا فى هذا الكتاب عن الموشحات المغربية وأتى بأمثلة عديدة منها مما كان يحفظه عن أهل المغرب وأردف ذلك بألوان من موشحات من صنعته هو. ومن الطريف أن نذكر أن ابن سناء الملك كان يتقن اللغة الفارسية بجانب إتقانه اللغة العربية بل

(١) ديوان ابن سناء الملك.

وضع موشحا بخرجة فارسية وكان المصريون السابقون على عصره والمعاصرون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية، ولكن ابن سناء الملك كان لا يتقيد بما تقيد به غيره بل كان يبتكر الخرجات من عنده ولأول مرة فى تاريخ فن الموشحات يضع ابن سناء الملك خرجة فارسية فهو يقول فى هذا الموشح:

فى خديك من صير اللاذ ... ثياب الياسمين
ودع ذا فيا حيرة الواشى ... من ذا السحر المبين
أهيم ولم لا أهيم ... ومالى لا أود
غزالا وقد قيل ريم ... وقد قالوا أسد
غرامى عليه مقيم ... ولى فيه جسد
بمصر وقلبى ببغداد ... مع ظبى فى عرين
وكم مات وجدا وكم عاش ... فى سمح وطنين
تغربت فيك بمصر ... مذ أحفاك الرحيل
للقياك إلا بفكرى ... على أنى قتيل
بسهم للحظك نفاذ ... للبس الدارعين
وبأس لحسنك بطاش ... بنسك الطايعين
فيا طول شوقى إليه ... ويا همى عليه
وماذا يكون عليه ... لو أرى بى إليه
لأشرب من مرشفيه ... وأسقى من يديه
سلافا من الدن كم عاذ ... بها القلب الحزين
فى طاس من التبر كم طاش ... بها العقل الرصين
أحوم لأنى محروم ... ومثلى من يحوم
وحسن حبيبى محروم ... ولى قلب رحوم
ووالله إنى مظلوم ... ومحبوبى ظلوم
سيمنع ظلمى بنو شاذ ... ملوك العالمين
أما بأسهم هدّ أعراش ... ديار الظالمين
وخود كما شبت طفلة ... كغصن مايس

أرادت أن تكون خلة ... لظبى كانس
فلما جنت منه قبلة ... شدت بالفارسى
دانستى كى بوسه بمن داد ... دها أنكسترين
أوار كواى دست من باش ... ببوستة شبين

والخرجة الفارسية بمعنى «هل تعرف متى قبلنى إن فمها.. كن شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى إياها».

فابن سناء الملك أول من مَصَّر خرجة الوشح. وأول من ألف كتابا فى هذا الفن، كما أنه أول من أكثر من كتابة الوشحات، فإن كان ابن سناء الملك عرف بالشعر، فإنى أضعه بين الموشحين، لأن الموشح هو الفن الذى برز فيه ونبغ أكثر من نبوغه فى الشعر.

ويظهر أن بنى سناء الملك أصابتهم محنة المصادرة بسبب أبيات قالها مهذب الدين الخيمى الشاعر عندما عذب ابنه وهى:

عصروك أمثال اللصو ... ص ولم تفد تلك الأمانة
فإذا سلمت فخنهم ... إن السلامة فى الخيانة
وافعل كفعل بنى سنا ... ء الملك فى مال الخزانة[1]

ولكن لم يذكر المؤرخون شيئا عن هذه القصة.

(١) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤٤.